لحوم البحر[١]

« قصيدةٌ مترجمةٌ عن الشَّيطان »

لكأنَّما والله قد تمدَّد على سِيْفِ البحر[٢] في إسكندريَّة شيطانٌ ماردٌ من شياطين ما بين الرَّجل ، والمرأة ، يخدع النَّاس عن جهنَّمَ بتبريد معانيها . . . وقد امتلأ به الزَّمان ، والمكان ؛ فهو يُرعِش ذلك الرَّملَ بذلك الهواء رَعشةَ أعصابِ حيَّةٍ ، ويُرسل في الجوِّ نفخاتٍ من جُرْأة الخمر في شاربها ثارَ ، فعَرْبد ، ويُطلِع الشَّمسَ للأعينِ في منظرِ حَسناءَ عُرْيانةٍ ألقتْ ثيابَها وحياءَها معاً ، ويُرخِي الليلَ ؛ ليغطيَ به المخازِي الَّتي خجل النَّهارُ أن تكونَ فيه !

ولعمري إن لم يكن هو هذا الماردَ ، ما أحسَبُه إلا الشَّيطان الخبيثَ الذي ابتدع فكرة عرْضِ الآثامِ مكشوفةً في أجسامها تحت عين التَّقيِّ والفاجر ، لتعملَ عملها في الطباع ، والأخلاق ، فسوَّلَ للنِّساء ، والرِّجال أنَّ ذلك الشَّاطىءَ علاج الملل من الحرِّ ، والتَّعب ، حتَّى إذا اجتمعوا ، فتقاربوا ، فتشابكوا ؛ سَوَّلَ لهم الأخرى : أنَّ الشاطىء هو كذلك علاج الملَل من الفضيلة ، والدِّين !

وإن لم يكن اللَّعينان فهو الرَّجيمُ الثالث ، ذلك الَّذي تألَّى[٣] أن يُفْسِد الآداب الإنسانيَّة كلَّها بفساد خُلُقٍ واحدٍ ، هو حياءُ المرأة ، فبدأ يكشفها للرِّجال من وجهها ، ولكنَّه استمرَّ يكشف . . . وكانت تظنُّه نزعَ حجابها فإذا هو أوَّلُ عُريها . . . وزادت المرأةُ ، ولكنَّه بما زاد فجورَ الرِّجال ؛ ونقصت ، ولكن بما نقص فضائلهم ، وتغيَّرت الدُّنيا ، وفسدت الطِّباع . فإذا تلك المرأة ممَّن يُقرُّونها على تبذُّلِها بين رجلين ، لا ثالث لهما : رجلٍ فجرَ ، ورجلٍ تخنَّث .

* * *

---

(١) كتبها من مصيفه في الإسكندرية . وانظر « عمله في الرسالة » و« عود على بدء » من كتابنا « حياة الرافعي » . (س) .

(٢) « سيف البحر » : ساحل البحر .

(٣) « تألى » : حلف .

هناك فكرةٌ من شريعة الطَّبيعة ، هي عقلُ البحر في هؤلاء النَّاس ، وعقلُ هؤلاء النَّاس في البحر : إذا أنت اعترضتها ، فتبيَّنتها ، فتعقَّبتها ؛ رأيتها بلاغةً من بلاغة الشَّيطان في تزيينه ، وتطويعِه ، وأصبتَ فكره مستقرّاً فيها استقرارَ المعنى في عبارته ؛ آخذاً بمداخلها ، ومخارجها . وما كان الشَّيطانُ عَيِيّاً ، ولا غبيّاً بل هو أذكى شعراءِ الكون في خياله ، وأبلغهم في فطنته ، وأدقُّهم في منطقه ، وأقدرهم على الفتنة والسِّحر ، وبتمامه في هذا كلِّه كان شيطاناً لم تسعْه الجنَّةُ ؛ إذ ليس فيها النَّار ، ولم ترضِه الرَّحمةُ ؛ إذ ليس معها الغضب ، ولم يعجبه الخضوع الملائكيُّ ؛ إذ ليس فيه الكِبرياء ، ولم يخلص إلى الحقيقة ؛ إذ لا تحملُ الحقيقةُ شِعْرَ أحلامه .

وما أتى الشَّيطانُ أحداً ، ولا وسوس في قلبٍ ، ولا سَوَّلَ لنفسٍ ؛ ولا أَغوى من يُغويه إلاَّ بأسلوبٍ شعريٍّ ملتبِّسٍ دقيقٍ ، يجعل المرءَ يعتقد : أنَّ اطِّراحَ العقلِ ساعةً هو عقلُ السَّاعة ، ويُفسد برهانه مهما كان قويّاً ؛ إذ يرتدُّ به من النَّفس إلى أخيلةٍ لا تقبلُ البرهانات ، ويقطعُ حجَّته مهما كانت دامغةً ؛ إذ يعترضها بنزعةٍ من النَّزعات توجِّهها كيف دارَ بها الدَّم ، لا كيف دار بها المنطق .

فكرةٌ من شريعة الطَّبيعة ، ظاهرها لِبعضِ الأمر من الشَّمسِ ، والهواءِ ، والبحرِ ، وما لا أدري ، وباطنها لبعض الأمر من فنِّ الشَّيطان ، وبلاغتِه ، وشعره ، وما لا أدري ، وما كانت الشَّرائع الإلـٰهيَّة والوضعيَّةُ إلا لإقرار العقل في شريعة الطَّبيعة ، كي تكونَ إنسانيَّةً لإنسانها كما هي الحيوانيَّةُ لحيوانها ، وليجدَ الإنسانُ ما يحفظُ به نفسه من نفسه الَّتي هي دائماً فوضى ، ولا غاية لها لولا ذلك العقل إلا أن تكون دائماً فوضى . . .

وبالشَّرائع ، والآدابِ استطاع الإنسان أن يضعَ لكلمةِ الطَّبيعة النَّافذةِ عليه جواباً ، وأن يرى في هذه الطَّبيعة أثرَ جوابه ؛ فكلمتها هي : أيُّها الإنسان ! أنت خاضعٌ لي بالحيوانيِّ فيك ! وكلمته هو : أيَّتها الطبيعة ! وأنتِ لي خاضعة بالإلـٰهيِّ فيَّ !

* * *

والآن سأقرأ لك القصيدة الفنِّيَّةَ الَّتي نظمها الشَّيطانُ على رمل الشَّاطئ في إسكندريَّة ، وقد نقلتها أُترجمها فصلاً بعد فصلٍ عن تلك الأجسام عاريةً ،

وكاسيةً ، وعن معانيها مكشوفةً ، ومغطاةً ، وعن طباعها بريئةً ، ومتَّهمةً ، حتَّى اتَّسقَت التَّرجمةُ على ما ترى :

قال الشَّيطان :

« ألا إنَّ البهيميَّة ، والعقليَّة في هذا الإنسان ، مجموعهما شيطانيَّة . . .

ألا وإنَّه ما من شيءٍ جميلٍ ، أو عظيم إلا وفيه معنى السُّخرية به .

هنا تتعرَّى المرأة من ثوبها ، فتتعرَّى من فضيلتها .

هنا يخلعُ الرَّجل ثوبه ، ثمَّ يعود إليه ، فيلبس فيه الأدبَ الذي خلعه . .

رؤية الرَّجل لحمَ المرأة المحرَّمة نظرٌ بالعين ، والعاطفة .

يرمي ببصره الجائع كما ينظر الصَّقر إلى لحم الصيد .

ونظر المرأةِ لحم الرَّجل رؤية فكر فقط . . .

تحوِّلُ بصرَها ، أو تخفضُه ، وهي من قلبها تنظر .

يا لحومَ البحر ! سلخك من ثيابك جزَّار . .

* * *

« يا لحومَ البحر ! سلَخَكِ جزارٌ من ثيابك .

جزارٌ لا يذبح بألمٍ ، ولكن بلذَّةٍ . . .

ولا يحزُّ بالسِّكين ، ولكن بالعاطفة . . .

ولا يُميت الحيَّ إلا موتاً أدبيّاً . . .

إلى الهيجاء يا أبطال مَعركة الرِّجال ، والنِّساء .

فهنا تلتحِمُ نواميس الطَّبيعة ، ونواميس الأخلاق .

للطَّبيعةِ أسلحة العُري ، والمخالطة ، والنَّظر ، والأنس ، والتَّضاحُك ، ونزوع المعنى إلى المعنى .

وللأخلاقِ المهزومة سِلاحٌ من الدِّين قد صَدِئَ ؛ وسلاحٌ من الحياء مكسورٌ ! يا لحومَ البحر ! سلخكِ من ثيابك جزار . . .

* * *

« الشَّاطئ كبيرٌ كبير ؛ يسع الآلاف ، والآلاف .

ولكنَّه للرَّجل والمرأة صغيرٌ صغير ، حتَّى لا يكونَ إلا خَلوة . . .

وتقضي الفتاة سَنتها تتعلَّم ، ثمَّ تأتي هنا تتذكَّر جهلَها ، وتعرفُ ما هو . . ،

وتقضي المرأة عامَها كريمةً ، ثمَّ تجيء لتجدَ هنا مادةَ اللُّؤم الطَّبيعيِّ . . .

لو كانت حَجَّاجةً صوَّامَةً ، للعنتْها الكعبةُ لوجودها في « استانلي » .

الفتاة ترى في الرِّجال العُرْيانين أشباح أحلامِها ، وهذا معنىً من السُّقوط .

والمرأةُ تسارقهم النَّظرَ تنويعاً لرجُلِها الواحد ، وهذا معنىً من المواخير .

أين تكون النِّيَّةُ الصَّالحة لفتاة ، أو امرأةٍ بين رجالٍ عُريانين ؟

يا لحومَ البحر ! سلخكِ من ثيابك جزار . . .

* * *

« هناك التَّربية ، وهنا إعلان الإغفال ، والطَّيش ؛

وهناك الدِّين ، وهنا أسبابُ الإغراء ، والزَّلل ؛

هناك تكلُّف الأخلاق ، وهنا طبيعته الحرِّيَّة منها .

وهناك العزيمة بالقهر يوماً بعد يوم ، وهنا إفسادها بالتَّرخص يوماً بعد يوم .

والبحر يعلِّم اللائي ، والذين يسبحون فيه كيف يغرقون في البرِّ . . .

لو درى هؤلاءِ وهؤلاء معرَّة اغتسالهم معاً في البحر ، لاغتسلوا من البحر ، فقطرة الماء الَّتي نجَّستها الشَّهوات قد انسكبت في دمائهم .

وذرَّة الرَّمل النَّجسة في الشاطئ ، ستكبر حتَّى تصير بيتاً نَجساً لأبٍ وأم .

يا لحومَ البحر ! سلخكِ من ثيابك جزَّار . . .

* * *

« يجيئون للشَّمس الَّتي تقوى بها صفاتُ الجسم .

ليجد كلٌّ من الجنسين شمسه الَّتي تضعُف بها صفات القلب .

يجيئون للهواء الَّذي تتجدَّد به عناصرُ الدَّم .

ليجدوا الهواء الآخر الَّذي تفسُد به معاني الدَّم .

يجيئون للبحر الَّذي يأخذون منه القوَّة والعافية .

ليأخذوا عنه أيضاً شريعته الطَّبيعيَّة : سمكةٌ تطاردُ سمكة . . .

ويقولون ليس على المَصيف حرج .

أي : لأنَّه أعمى الأدب ، وليس على الأعمى حرج .

يا لحومَ البحر ! سلخكِ من ثيابك جزَّار . .

* * *

« المدارس ، والمساجد ، والبِيَعُ[١] ، والكنائس ، و« وزارة الدَّاخلية » .

هذه كلُّها لن تهزمَ الشَّاطئ .

فأمواج النَّفسِ البشريَّة كأمواج البحر الصَّاخب : تنهزم أبداً ؛ لترجعَ أبداً .

لا يهزم الشَّاطئ إلا ذلك « الجامع الأزهر » ، لو لم يكن قد مُسِخ مدرسة !

فصرخةٌ واحدةٌ من قلب الأزهر القديم ، تجعل هديرَ البحر كأنَّه تسبيح .

وتردُّ الأمواج نقيَّةً بيضاء[٢] ، كأنَّها عمائم العلماء .

وتأتي إلى البحر بأعمدة الأزهر للفصل بين الرجال والنساء .

ولكنِّي أرى زمناً قد نقل ـ حتَّى إلى المدارس ـ رُوح « الكازينو » . . . !

يا لحومَ البحرِ ! سلخكِ من ثيابك جزَّار . . . !

* * *

« هنا على رغم الآداب ، مملكةٌ للصَّيف ، والقيْظ ، سلطانها الجسم

---

(١) « البِيَع » : جمع بِيْعَة ، وهي كنيسةُ النصارى ، ومحلّ عبادتهم .

(٢) يرى بعضُهم أنَّ مثل هذا الوصف خطأ ، وأن الصواب أن يقال « بيض » ، ولسنا من هذا الرأي ، وقد غلط فيه المبرد ومَنْ تابعوه ؛ لغفلتهم عن السِّرِّ في بلاغة الاستعمال مرة في الوصف بالمفرد ، ومرة في الوصف بالجمع . (ع) .

قلت : وأحسبُه يعني ببعض ما سبق الأب أنستاس ماري الكرملي ، فقد كان بينهما حديث ورسائل حول صحة هذا التعبير . (س) .

المؤنَّثُ العاري .

أجسامٌ تَعرِض مَفاتِنَها عَرض البضائع ، فالشَّاطئ حانوتٌ للزَّواج !

وأجسامٌ تَعرِض أوضاعَها كأنَّها في غرفةِ نومها لا في الشَّاطئ . . .

وأجسامٌ جالسةٌ لغيرها ، تحيط بها معانيها ملتمسةً معانيه ؛ فالشَّاطئ سوقٌ للرَّقيق . . .

وأجسامٌ خَفِرةٌ جالسةٌ للشَّمس والهواء ، فالشَّاطئ كدار الكفر لمن أكرِهَ[1] .

وأجسام عليلةٌ تقتَحِمها الأعين ، فتزدريها ، لأنَّها جَعلتِ الشَّاطئ مستشفى . !

وأجسامٌ خليعةٌ أضافت من « إستانلي » وأخواتها ؛ إلى منارة إسكندريَّة ، ومكتبة إسكندريَّة ؛ مزبَلة إسكندرية . . .

كان جدال المسلمين في السُّفور ، فأصبح الآن في العُرْي .

فإذا تطوَّر ، فماذا بقي من تقليد أوربة إلا الجدال في شرعية جمعِ المرأة بين الزَّوج وشِبْه الزَّوج[2] ؟» .

* * *

انتهى ما استطعت ترجمته ، بعد الرُّجوع في مواضع من القصيدة إلى بعض القواميس الحيَّة . . . إلى بعض شبَّان الشَّاطئ !

* * *

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ [النحل : ١٠٦] .

(٢) يُسمَّى هذا في اللغة : الضَّمَد ـ بفتح الضاد والميم ـ وهو : أن يُخالَّ الرَّجلُ المرأةَ ولها زوج . ومنه قول الشاعر :

تريدين كيما تضمديني وخالداً وهل يجمع السَّيفان ويحك في غمد ؟!

ومن هذا يُقال في الرَّجُل : ذاق الضِّماد ـ بكسر الضاد ـ أي : ذاق الطَّعم الذي وصفه أناتول فرانس . (ع) .